التنمية الأخلاقية

إنّ صناعةَ الإنسانِ الكاملِ ، وبناءَ الأسرةِ المتماسكةِ ، وإقامةَ المجتمعِ الفاضلِ ، هي مِن أسمى أهدافِ بعثةِ الأنبياءِ والرسلِ عليهم السلامُ .

لكنّ طوفانَ الفسادِ في آخرِ الزمانِ حملَ مِنَ الأوبئةِ الخُلُقيةِ الشيءَ الكثيرَ ، فقد حَمل الكذبَ والدَّجَلَ ، والحسدَ والنفاقَ ، والفسقَ والفجورَ ، والظلمَ والخيانةَ ، والحميَّةَ والعصبيةَ ، والغشَّ والتدليسَ ، والطمعَ والجشعَ ، والمكرَ والحيلةَ ، والفحشَ والخلاعةَ ، والحرصَ والبخلَ ، والترفَ والتبذيرَ ، وسوءَ الظنِّ باللهِ والرياءَ ، وعقوقَ الوالدين وإهمالَ الأولادِ ، وأكْلَ السُّحتِ والمالِ الحرامِ ، وأكْلَ مالِ اليتيمِ ظلماً .

إنّ ظاهرةَ النفاقِ التي تحدَّث عنها القرآنُ الكريمُ والسُنَّةُ النبويّةُ الصحيحةُ بتفصيل مطوَّلٍ تعني خللاً في مطابقةِ الأقوالِ للمعتقداتِ ، وهذا هو النفاق الاعتقادي الذي يخرِجُ صاحبَه من المِلّة ، أمّا التباينُ بينَ الأقوالِ والأفعالِ فيعبَّر عنه بالنفاقِ العمليِّ ، وهذا شاعَ كثيراً في المجتمعِ ، ومهمّةُ التنميةِ الأخلاقيةِ تطهيرُ حياةِ المسلمينِ مِن كلِّ هذا .

إنّ أهمَّ مصدرٍ للسعادةِ والهناءِ انسجامُ واقعِ المرءِ مع ما يعتقدُ ، حيثُ

يشعرُ المرءُ بتيّارٍ يجتاحُه من البهجةِ والارتياحِ والأمنِ كلما تخطّى عقبةً من العقباتِ التي تحولُ بينه وبين التناقض مع مُثُلِه وقِيمه العليا .

إنّ اللّذاتِ الحسيةَ لا تخترقُ غشاءَ القلبِ ، بل لا تحومُ حولَه ، لكنّ الذي يملأ كيانَ المرءِ كلَّه بالسعادةِ والطمأنينةِ هو نشوةُ الانتصارِ على الأهواءِ والمغرياتِ ، وضغوطاتِ الشهواتِ والمصالحِ .

إنّ السعادةَ الحقيقيةَ لا تُجلَبُ أبداً من الخارج ، وإنّما هي شعاعٌ من نورٍ ، يولَدُ ، ويكبرُ في داخلِ الإنسانِ ، ويضيءُ جوانبَ الحياةِ كلَّها ، ويجعلُها أكثرَ قيمةً ومنطقيةً ، وأكثرَ تهيُّؤاً للنموِّ والتقدّمِ والاستمرارِ ، وكلُّ ذلك مرهونٌ بأوضاعٍ تسودُ فيها الأحكامُ الأخلاقيّةُ ، ويعلو فيها صوتُ الالتزامِ والاستقامةِ ، وترفرفُ في أرجائها إشراقاتُ النفسِ !

إنّ القاعدةَ النفسيةَ الأخلاقيةَ في أيّ مجتمعٍ هي التي تتحمَّلُ الأثقالَ التي تنتجُ عن طبيعةِ الحياةِ الماديّةِ والاجتماعيّةِ ، وعن الانتكاساتِ التي تصابُ بها الأمّةُ في ميادينِ الحياةِ المختلفةِ .

إنّ هذه القاعدةَ هي التي تمكّنُ الناسَ من تحمُّلِ الظروفِ الصعبةِ مِن دونِ أنْ يتحلَّلوا ، أو ينحرفوا ؛ فحين يُصابُ الناسُ بضائقةٍ اقتصاديّةٍ شديدةٍ فإنّ القاعدةَ الأخلاقيةَ تدفعهم إلى إغاثةِ الملهوفِ وإطعامِ الجائعِ ، والصبرِ على المدينِ المعسرِ ، إلى جانبِ التماسكِ الشخصيِّ ، وعدمِ الرضوخِ لمقتضياتِ الظروفِ الصعبةِ ؛ فنجدُ المسلمَ الحقَّ يمتنعُ عن كلِّ أنواعِ الكسبِ الحرامِ مع فاقته الشديدة ، وذلك اتكالاً على ما لديه من قيمٍ ومقاومةٍ إيمانيةٍ لدواعي التحلُّلِ .

إنّ هذه القاعدةَ هي الرصيدُ الاحتياطيُّ الضخمُ الذي تعتمد عليه الأممُ في ترميمِ العديدِ من أنواعِ الخللِ في حياتها .

ومن هنا ندركُ حجمَ الجريمةِ التي ارتُكِبَتْ في حقِّ هذه الأمّةِ حينما دُفعت دفعاً من قِبَلِ أعدائها على مستوى التنظيرِ ، وعلى مستوى العملِ إلى أنْ تجعلَ القيمَ الأخلاقيةَ والنفسيةَ في المرتبةِ الدنيا من اهتماماتها ؛ فلما واجه الناسُ ما واجهوه من ضائقاتٍ في العيش ، ومن شحٍّ في متطلباتِ الحياةِ الكريمةِ لم يجدوا لديهم سنداً خُلقياً كريماً يعتمدون عليه في الصمودِ أمامَ المغرياتِ ، وأمام أسبابِ الانحدارِ المختلفةِ !

إن الذين نكنُّ لهم عظيمَ الاحترامِ ليسوا أولئك الذين يملكون كثيراً من المالِ ، أو الدهاءِ والمكرِ ، أو القوّةِ الجسديةِ الخارقةِ ، وإنما نُكِنُّ عظيمَ الاحترامِ لأولئك الذين يملكون خُلُقَ التسامي ، وخُلُقَ الترفُّعِ عن سفاسفِ الأمورِ ، وأولئك الذين انتصروا على التحدِّياتِ داخلَ نفوسهم ، وأولئك الذين يملكون فضيلةَ الانتظارِ والتضحيةِ بالعاجلِ في سبيلِ الآجلِ ، والإيثارِ مع مسيسِ الحاجةِ إلى ما يؤثرونه .

إنّه بالإمكانِ أنْ نقولَ : إنّ طابعَ الرقيّ الحقيقيَّ هو طابعٌ إيمانيٌّ أخلاقيٌّ أكثر من أن يكون طابعاً عمرانياً تنظيمياً ، والجاذبيةُ التي تتمتعُ بها القرونُ الأولى من تاريخِ الإسلامِ تنبعُ أساساً من طابعِ الاستقامةِ والنبلِ والتضحيةِ ، وليس من التفوُّقِ في الحروبِ أو العلومِ أو العمرانِ .

ولعلّ الطريقَ الوحيدَ إلى كسرِ أغلالِ الشهواتِ يكونُ عن طريقِ إحداثِ انتفاضةٍ إيمانيّةٍ أخلاقيّةٍ يستعلي بها المسلمُ على المعطياتِ المادّيةِ

للوضعِ الحضاريِّ الراهنِ ، ويلتفتُ إلى إثراءِ حياته بوسائلَ كثيرةٍ لا تحتاجُ إلى المالِ .

إنّ دراسةَ الحضاراتَ توقِفُنا على حقيقةٍ كبرى ، وهي أنّ مصيرَ الإنسانِ كان يتوقّفُ دائماً على أمرين : علاقتُه بربّه ، وعلاقتّه بأخيه الإنسانِ ، والبعدُ النفسيُّ والأخلاقيُّ هو المركزُ والمحورُ في هاتين العلاقتين .

حينما ينحطُّ الإنسانُ يتحوّلُ عن عبادته لربّه إلى عبادته لشهواته ، وتعتمدُ علاقتُه بالآخرين على القوةِ لا على الرحمةِ ، وعلى العنفِ لا على التفاهمِ ، وينصرفُ الإنسانُ عن العنايةِ بالنفسِ إلى العنايةِ بالجسدِ ، وعن الاهتمامِ بالمبدإِ إلى الاهتمامِ بالمصلحةِ ، ويتحوّلُ المجتمعُ كلُّه إلى غابةٍ يشعرُ كلُّ واحدٍ فيها أنّ مِن حقِّه افتراسَ الآخرين ، كما أنّه من الممكنِ أنْ يكونَ فريسةً لأيِّ واحدٍ منهم ! هذا هو مجتمعُ الغابِ .

والطريقُ الوحيدةُ للحيلولةِ دون هذه الحالةِ تكمنُ في تدعيمِ الرقابةِ الذاتيةِ ، وتعزيزِ علاقةِ العبدِ بربّه ـ جل وعلا ـ وتحفيزِ الإرادةِ الخيِّرةِ في النامسِ ، وهذا الحلُّ وإنْ كان مُكْلفاً على المدى القريب فإنه سفينةُ نوح على المدى البعيدِ .

لنْ يكونَ في إمكانِ أفضلِ النظمِ الاجتماعيةِ ، ولا في إمكانِ أقسى العقوباتِ الصارمةِ أنْ تقوِّمَ الاعوجاجَ ، ولا أنْ تملأَ الفراغَ الناشئَ عن ذبولِ النفسِ ، وانحطاطِ القيمِ ؛ فالعقوباتُ الصارمةُ لا تنشئُ مجتمعاً ، لكنّها تحميه ، والنظمُ مهما كانت مُحكَمةً ومتقَنةً فلن تحُولَ دون تجاوزِ الإنسانِ لها ، وتأويلِها بما يجهضها ، وكلُّ الحضاراتِ المندثرةِ تركت

تنظيماتِها وأدواتِ ضبطها خلفها شاهدةً على نفسِها بالعقمِ والعجزِ .

لابدَّ أنْ نكونَ على يقينٍ من أنّ تيارَ الشهواتِ والنزواتِ الجارفَ لا يمكن أنْ يقابَلَ إلا بتيارٍ إيمانيٍّ متدفِّقٍ من المشاعرِ والأحاسيسِ الإنسانيةِ ؛ فوظيفةُ الفكرِ الدَّلالةُ على الطريقِ ، وعلى الأساليبِ والأدواتِ المناسبةِ للعملِ ؛ ولكنّ الذي نستمدُّ منه الطاقةَ على الاندفاعِ في طريقِ الخيرِ ، والقوّةَ على كبحِ جماحِ الشهوات هو الإيمانُ العميقُ ، ورصيدُنا من المشاعرِ الحميمةِ التي هي ثمرةُ الاتصالِ بالله ، وإنّ كثيراً من الشبابِ الذين جرفهم تيارُ الجنسِ والمجونِ والخلاعةِ لم يكونوا بحاجةٍ إلى أدلّةٍ على فضلِ العفّةِ والاستقامةِ ، وإنما كانوا بحاجةٍ إلى شيءٍ من المعاني التي تفيضُ على القلبِ بسببِ تذوُّقِ طعمِ العبوديةِ الحقيقيةِ لله ، والإحساسِ الصادقِ بمعيّة اللهِ تعالى لهم واطّلاعِه عليهم .

حين يبلغُ التقدُّمُ التقنيُّ أقصى مداه ، ويشعرُ المرءُ بالتُخمةِ من أداوتِ التحكُّمِ عن بُعْدٍ ، وكلِّ ما يجعلُ الحياةَ خاليةً من التحدِّياتِ حينئذٍ تنبعثُ في النفسِ أشواقٌ قديمةٌ جديدةٌ ، هي أشواقُ النفسِ إلى ما وراءَ المادّةِ ، إلى عالَمِ التراحمِ ، إلى عالَمِ التعاطفِ ، إلى عالَمِ التضحيةِ ببعضِ المكاسبِ من أجلِ استمرارِ حياةِ الجميعِ .

إنّ الأخلاقيّين اليومَ هم القادةُ غداً ، وهل يُعرفُ فضلُ الماءِ إلا عند اشتدادِ الظمأِ ؟

إنّ الإسلامَ يعلّمنا أنّه بالإمكان تصحيحُ المسارِ قبلَ أن نرتطمَ بقاع الهاويةِ ، كما يعلّمنا أنه بالإمكان أن نتحوّلَ من الخسارةِ إلى الربحِ قبلَ أن يصبحَ الرصيدُ صفراً ؛ وذلك إذا أصغينا إلى نداءِ الفطرةِ في أعماقنا ،

وضغطْنا على بعضِ حاجاتِ الجسدِ من أجلِ إنعاشِ النفسِ ، وفكّرنا مَلياً بما هو آت .

إنّ المسألةَ الحاسمةَ في مجالِ الأخلاقِ هي إطارُها المرجعيُّ ، أيْ الجهةُ التي نستمدُّ منها الحُكمَ على حُسن الخُلق أو قبحِه ، والجهةُ التي ستتولّى الإثابةَ أو المعاقبةَ على ذلك الخُلُقِ .

في العالَم الغربيِّ تحوّلَ الإطارُ المرجعيُّ للأخلاقِ من الوحيِ إلى العقلِ ، وهذا العقلُ بعيداً عن الوحيِ يقودُ إلى مبدإٍ خطيرٍ جدًّا ، وهو مبدأُ النسبيةِ في الأخلاقِ ، حيث أصبحَ الطريقُ ممهّداً لتحويلِ الرذائلِ إلى فضائلَ ، وأصبح النموُّ الاقتصاديُّ صنماً يُعبَدُ من دونِ اللهِ ، وتُقدَّم له كلُّ القرابين .

لاشكَّ أنّ علينا أن نبذلَ جهوداً ضخمةً لإحياءِ أخلاقٍ جديدةٍ تلبّي شروطَ العيشِ في عصرٍ معقَّدٍ ، وتستندُ في الوقتِ نفسِه إلى المبادئِ الإسلاميّةِ ، والقيم الإسلاميّةِ ، إلا أنّ التقدُّمَ الحاسمَ في المجالِ الأخلاقيّ ربما كان بحاجةٍ إلى إحرازِ تقدُّمٍ في المجالاتِ السياسيةِ والحضاريةِ ، حيث إنّ التخلُّف نفسَه يحولُ دونَ الإبداعاتِ الأخلاقيةِ الأصيلةِ .

ومما لا يخفى أنّ الثقافةَ العلمانيةَ وكثيراً من الثقافاتِ التي فُرِضَتْ علينا أهملت الميدانَ الأخلاقيَّ إهمالاً شبهَ تامٍّ ، وذلك نتيجةً للتأثرِ بفلسفةٍ وضعيةٍ ، جعلت العِلمَ الماديَّ هدفَ كلِّ تقدُّمٍ ، وصار هذا العِلمُ الماديُّ علماً ، وأخلاقاً ، وأدباً وقيماً ! وصارت الأخلاقُ الأصيلةُ

الإسلاميةُ تُصوَّر على أنها قيودٌ مفروضةٌ بسببِ الجهلِ ، وعَمَى التقاليدِ ، وأنك ضعيفٌ لأنك أخلاقيٌّ ، أو أنك أخلاقيٌّ لأنك ضعيفٌ ، وأنّ أخلاقَ المسلمين أفقدتْهُم المقدرةَ على استيعابِ الحضارةِ الحديثةِ ! وصارت الأخلاقُ كما تصوِّرُها التياراتُ العلمانيةُ تعني سذاجةً في الشخص ، وبساطةً في تركيبه ، وتثيرُ الشكَّ في صدقِ موقفِه ، بل ربما دفعتْ إلى اتّهامه بشتّى التُّهمِ .

نتيجةً لتهميشِ كثيرٍ من كتَّابنا القضايا الأخلاقيةَ ، ونتيجةً لسوءِ التخطيطِ وسوءِ الظروفِ المعيشيةِ لكثيرٍ من الناس سادت لدينا أمراضٌ أخلاقيّةٌ عديدةٌ وخطيرةٌ ، نذكر بعضاً منها على سبيل المثالِ لا الحصر :

إنّ كثيراً من الناسِ يعيشُ اليومَ دون أيّ أهدافٍ ساميةٍ ، فتأمينُ الحاجاتِ الضروريةِ هو شغلُ الناسِ الشاغلُ ، وامتلاكُ بيتٍ صغيرٍ يُعدّ نصراً كبيراً في معركةِ شرسةٍ !

وقد صار الواحدُ من الناس أشبهَ بالحيوانِ البرّي الذي يقضي حياتَه في حديقةِ حيواناتٍ ، فهو ليس معزولاً عن بيئته الطبيعيةِ فحسبُ ، بل هو معزولٌ عن أعماقِ ذاته ، وعن هويته ، وعن سرِّ وجوده ، وعن غايةِ وجوده .

ويعاني السوادُ الأعظمُ من الناسِ من ضعفِ الإحساس بالواجب ، وهو المبدأُ الذي يتجاوز المصلحةَ المباشرةَ والفرديةَ ؛ ليعكسَ تساميَ الإنسانِ أو قدرتَه على الالتزامِ تجاهَ غيرِه ، والتضحيةَ من أجلِ غيرِه .

وما الشعورُ بالواجبِ إلا ثمرةٌ للشعورِ بشرفِ الانتماءِ إلى الجماعةِ ،

وبالرغبةِ في الذوبانِ فيها ، فإذا عجزَ الإنسانُ عن الالتزامِ الجماعيِّ أباحَ لنفسِه كلَّ ما استطاعَ أنْ يحرِّمه على غيرِه .

وهناك فريقٌ من المسلمين من نوعٍ آخرَ يعاني على الصعيدِ الحضاريِّ من ذبولِ الروحِ الجماعيةِ لديه ، وهو ينزعُ باستمرارٍ إلى نوعٍ من الانطواءِ على الذاتِ والأسرةِ والحيِّ والقريةِ والقبيلةِ ، وهو نزوعٌ ذو أثرٍ سلبيٍّ على الإحساسِ بمصلحةِ الأمةِ والحرصِ على تقدُّمِها .

وإلى جانبِ ذلك فهناك عاداتٌ سيِّئةٌ عديدةٌ تتعلّقُ بالعملِ والاستهلاكِ ؛ إذ إنّ كثيراً من الناسِ ينظرون نظرةَ ازدراءٍ للعملِ الإبداعيِّ ، كما أن هناك رغبةً قويّةً لشراءِ العقاراتِ ، وشراءِ السياراتِ الفاخرةِ ، والإنفاقِ الترفيّ والبذخيّ الذي لا تتحمّله مواردُ الأمّةِ .

وهناك أمراضٌ خُلقيّة كثيرةٌ على صعيدِ العلاقاتِ بين الناس ، مثلُ قطعِ الرّحمِ ، والجفاءِ بين الأهلِ والجيرانِ ، ومثلُ الحسدِ والتكبُّرِ على الناسِ ، وحبِّ الاستئثارِ ، والانفرادِ بالخيراتِ العامةِ والمشتركةِ .

وإنّ مشكلاتِ الزحامِ وشحّ الموارِدِ ، وتراجعِ التربيةِ الخُلقيةِ ، وضعفِ الإحساسِ بالأهدافِ الكبرى سوف تولِّدُ المزيدَ من التأزّمِ النفسيّ ، والمزيدَ من الأمراضِ الخُلقيةِ ، وذلك يحتاجُ إلى تأمّلٍ عميقٍ من المصلحين ، وإلى البحث عن سبلٍ للعلاجِ والخلاصِ .

إنّ الانحدارَ الأخلاقيَّ كثيراً ما يكون صدىً لأزماتٍ يمرُّ بها المجتمعُ ؛ فقد تنتشرُ الجريمةُ بسببِ ضائقةٍ اقتصاديةٍ ، أو كبتٍ شديدٍ ، أو وجودِ نماذجَ اجتماعيةٍ غارقةٍ في البذخ والترفِ .

وهذا كلُّه يوصلُنا إلى قناعةٍ بضرورةِ ألاّ نعزلَ معالجةَ القضايا الأخلاقيةِ عن معالجةِ مشكلاتِ الحياةِ الأخرى ، وهذا ما نغفلُ عنه في أحيانٍ كثيرةٍ.

لكنْ لا ينبغي أن نصرفَ انتباهَنا عن حقيقةٍ أخرى تتّصلُ بالمسألةِ الأخلاقيةِ ، وهي أنّ لكلّ أمّةٍ سُلَّماً قيَمِيًّا ترتّب فيه أخلاقَها في ضوءِ أمرين : مبادئها وحاجاتها ؛ فظروفُ الصحراءِ والبداوةِ حملت العرب في الجاهليةِ على وضعِ الشجاعةِ والكرمِ في أعلى السلّمِ القيَميّ ؛ وحين جاء الإسلامُ لم يُخرجْ هاتين الخصلتين مِن سُلَّمِ الفضائلِ ، لكنه غيَّرَ من موقعِها في الإطار الجديدِ ، حيث صارت التقوى المعيارَ الأهمَّ في الدلالةِ على الفضلِ والسبقِ .

وفي المجتمعاتِ الصناعيةِ الحديثةِ هناك ميلٌ قويٌّ إلى جعلِ الدقةِ والفاعليةِ والإنجازِ والمهارةِ والنجاحِ في أعلى السُّلم القيَميّ ، وهكذا .

والذي نريد أن نقولَه : إننا اليومَ في أمسِّ الحاجةِ إلى إيجادِ مدخلٍ جديدٍ للتنميةِ الأخلاقيّةِ ، يقومُ على منحِ بعضِ الثوابتِ القيمية والأخلاقيةِ معاني جديدةً أو اهتماماتٍ خاصةً ببعضِ مدلولاتها ، بغيةَ التخفيفِ من حدّةِ وطأةِ التخلُّفِ الذي يجتاحُ حياةَ المسلمِ ، فالتقوى في حياتنا المعاصرةِ بحاجةٍ إلى إثراءِ مفرداتها كي تتناولَ بعضَ الفروضِ الحضاريةِ ، كالإسراعِ إلى العملِ ، وإتقانِ العملِ ، وتطويرِ العملِ ، والمحافظةِ على الوقتِ ، وحسنِ إدارته ، والعملِ المؤسساتيّ ، وترسيخِ مفهومِ فريقِ العملِ ، والالتزامِ بالمواعيدِ ، وحسنِ التصرّفِ بالإمكاناتِ المتاحةِ ، وترشيدِ الاستهلاكِ . . . وكلّ هذه القيمِ المعاصرةِ لها أصولٌ ثابتةٌ في القرآنِ والسُّنّةِ .

ويمكنُ من خلالِ التربيةِ والموعظةِ الحسنةِ أنْ نجعلَ المسلمَ يشعرُ

بحلاوةِ الإيمانِ ، وحلاوةِ الالتزامِ من خلالِ القيامِ بهذه الأعمالِ التي تقتضيها طبيعةُ العصرِ ، كما يشعر تماماً عندما يضع صَدَقةً في يدِ فقيرٍ ، أو عندما يقوم الليلَ والناسُ نيامٌ .

فالتجديدُ النفسيُّ والأخلاقيُّ ليس نَسْخَ أخلاقٍ وإحلالَ أخلاقٍ أخرى في موضِعها ، وإنما هو توسيعٌ في مدلولاتِ بعضِ المفهوماتِ الأخلاقيةِ ، ومنحُها أهميةً أكبرَ في النَسقِ الأخلاقيِّ العامِّ .

لا توجدُ أمّةٌ ليس لها مبادئُ محددَّةٌ تعوّل عليها في الضبطِ الاجتماعيِّ ، وفي ترجيحِ ممكنٍ على ممكنٍ آخرَ ، كما أنه ليس هناك أمّةٌ تخطِّطُ لجعلِ واقعِها حرباً على مبادئها ، وقد ضربتْ أمّةُ الإسلامِ أروعَ الأمثلةِ في هذا السبيلِ ، مما ليس له نظيرٌ .

ومع الإدراكِ العميقِ للصعوباتِ الكثيرةِ التي تواجهُ مَن يريدُ إحداثَ تقدُّمٍ أخلاقيٍّ ممتازٍ في وسطٍ متأزِّمٍ ، فلابد من ذكرِ بعضِ المبادئِ والشروطِ والأساليبِ والوسائلِ التي نظنُّ أنها ذاتُ تأثيرٍ في تحسينِ المستوى النفسيِّ والخُلقيِّ لأمّتنا والرقيِّ به[1] .

إنّ أمةَ الإسلامِ اليومَ تحاولُ أنْ تنطلقَ نحو آفاقٍ واسعةِ المدى ، عليها أن تجدِّدَ مضامينَ الانطلاقةِ الأولى التي أشعلَ شرارَتها النبيُّ ﷺ وأهلُ القرونِ الخيّرةِ من بعدِه ، وهذا في الحقيقةِ يحتاجُ إلى روّاد ، وإلى دعاةٍ ، وإلى علماءَ من نوعيةٍ خاصّةٍ ، ومع أنّ كثرةَ عددهم أمرٌ مهمٌّ جداً ، إلا أنّ نوعيةَ المواصفاتِ والأخلاقَ التي يجب أن يتحلّوا بها تظلّ

(١) اقتبست معظم فقرات هذا الموضوع من كتاب « التنمية الأخلاقية » للدكتور عبد الكريم بكار .

أهمَّ من كثرةِ عددهم ؛ فالصحابةُ الكرامُ الذين تلقّوا تربيةً مكثَّفةً ومتميّزةً عن النبيِّ ﷺ ربّما لا يتجاوزون بضعةَ ألوفٍ ، ولكنّ خصوصيةَ سماتِهم وأخلاقِهم جعلتْ منهم قدوةً فريدةً ، أمكَنَها أنْ تحملَ بناءً ضخماً متطاولاً ، وما زلنا إلى اليومِ نقتبسُ من بركاتِ تلك القدوةِ وهديِها .

من سمات هذا الذي يريد أن يصلح من شأن الأمة :

أ ـ صلةٌ قويةٌ بالله جلَّ وعلا : إنّ الصلةَ القويةَ بالله تغمرُ كيانَ المسلمِ ، وتنقلُ إيمانَه من حيِّزِ الدائرةِ العقليةِ والتصديقِ القلبيِّ إلى حيّزِ الشعورِ ، المعبَّرِ عنه في حديثٍ في صحيحِ مسلمٍ حين قال له جبريل : « فَأَخْبِرْنِي عَنْ الإِحْسَانِ ؟ قَالَ : أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ »[1] ، وهذا لن يتأتّى إلاّ من خلالِ العباداتِ المكثَّفةِ ، حيثُ إنّ الإيمانَ أشبهُ شيءٍ بشجرةٍ وارفةِ الظلالِ ، وكلما أردنا لهذه الشجرةِ أنْ تكبرَ ، وأن تمدّ أغصانَها في كل اتّجاهٍ ، كان علينا أنْ نسقيَها أكثرَ ؛ وماؤها هو العباداتُ والنوافلُ والأذكارُ .

وهذه السِمةُ كانت واضحةً جداً في حياةِ الصحابةِ ـ رضي الله عنهم ـ والسلفِ الصالحِ عامّةً .

إنّ الإيمانَ الحيَّ المتدفِّقَ هو الطاقةُ العظمى التي نحتاجها في مرحلةِ الإقلاعِ ، وليس ثمّةَ بديلٌ لذلك .

ب ـ الصبرُ وطولُ النَفَسِ : حيثُ إنّ الواقعَ الرديءَ الذي نعيشه ما هو إلا خلاصةٌ لتراكماتِ أخطاءِ قرونٍ عديدةٍ ؛ وحتى يتحسَّنَ ذلك الواقعُ

---

(١) مسلم (٨) عن عمر بن الخطاب .

بصورةٍ جيدةٍ ، فإنه يحتاج إلى زمنٍ وجهدٍ ، وقد صرّح القرآنُ الكريمُ بهذا المعنى حين قال :

﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ﴾ [السجدة : ٢٤] .

وأحياناً يسيطرُ على الناسِ اليأسُ بسببِ طولِ الطريقِ ومشاقّه ، وبسببِ شعورِهم بأنّ التحسُّنَ ضعيفٌ أو معدومٌ ، أمّا الروّاد والدعاةُ الصادقون والعلماءُ الربّانيُّون فإنهم لا ينظرون أبداً إلى ما قطعوه من الطريقِ ، ولا إلى ما تبقّى منه ، وإنما يستغرقُهم ، ويسيطرُ عليهم الانشغالُ بواجبِ الوقتِ ، والانشغالُ بتصحيحِ المسيرةِ ، وهم بعدَ ذلك يشعرون أنهم لم يقدّموا سوى جزءٍ يسيرٍ من المطلوبِ ، ولكنه جهدُهم الذي يملكونه ، وينتظرون من اللهِ ـ تعالى ـ أن يتقبّله .

ج ـ **الإعراضُ عن متاعِ الدنيا وشهواتِها** : ومع أنّ قدْراً من ذلك مطلوبٌ مِن كل مسلمٍ ، إلا أن للروادِ شأناً آخرَ ، فهم أحقُّ الناسِ بالتقلُّل قدْر الإمكانِ من متاعِ الحياةِ الدنيا ، بما لا يصلُ إلى حدِّ الحرمانِ ؛ ويظلُّ المهمُّ هو شعورَ الناسِ بتميُّزِ هذه الفئةِ المباركةِ في أسلوبِ عيشِها ، وفي مقاييسها للرقيِّ الاجتماعيِّ .

إنّ الأمةَ في هذه المرحلةِ بحاجةٍ ماسّةٍ إلى المالِ ، كي تشيِّدَ المرافقَ العامّة والمدارسَ والجامعاتِ . . . وهي بحاجةٍ إلى مَن يوضِّحُ لها طريقةً عمليةً منهجيَّةً جديدةً في العيشِ بعيداً عما اعتاده كثيرٌ من الناسِ من البذخِ والترفِ وإنفاقِ المالِ بغيرِ حسابٍ ، ولا أدنى شعورٍ بالمسؤولية .

د ـ **التضحيةُ والعطاءُ السخيُّ والكرمُ الذاتيُّ** : **هذه سماتٌ** مهمّةٌ فيمن

يتصدَّى للنهوضِ بهذه الأمةِ ، ومع كونِ هذه المعاني عميقةً في ثقافةِ المسلمِ ومتغلغلةً في وجدانِه ، إلا أنّ الناسَ يبحثون دائماً عن القدوةِ والنموذجِ المحسوسِ ، ولو أنّ المبادئَ تُغيِّرُ حياةَ الناسِ لمَا بعثَ اللهُ تعالى الرُسُلَ ، ولا أنزلَ الكُتُبَ ، لكنْ مضتْ سُنَّتُه في خَلقِه بأنّ لسانَ الحالِ أبلغُ مِن لسانِ المقالِ ، وأنّ المحسوسَ أسهلُ في الإدراكِ وأعظمُ في التأثيرِ من المجرَّدِ ، فحالٌ موصولٌ باللهِ في ألف رجلٍ أبلغُ من مقالِ ألفٍ في واحدٍ .

النفسُ تبكى على الدنيا وقد علمتْ ... أنّ السلامةَ فيها تركُ ما فيها

لا دارَ للمرءِ بعدَ الموتِ يسكنُها ... إلاّ التي كان قبلَ الموتِ بناها

فإنْ بناها بخيرْ طابَ مسكنُه ... وإنْ بناها بشرٍّ خاب بانيها

إنّ القضيةَ الأساسيةَ في التعاملِ مع الأحداثِ الجِسامِ ليست في تصديق وقوعِها ، أو عدمِ تصديقِه ، فطبيعةُ العصرِ مِن حيث التواصلُ الإعلاميُّ المذهِلُ ، وثورةُ المعلوماتِ المتفجرةُ ، واجتماعُ الأممِ والشعوبِ في غرفةٍ إعلاميةٍ واحدةٍ ، يُلغي موضوعَ التصديقِ ، أو عدمِ التصديقِ ، ولكنّ العبرةَ في التعاملِ مع الأحداثِ الجِسامِ تحليلُها التحليلَ الصحيحَ ، ثم اتخاذُ موقفٍ ، والانطلاقُ إلى عملٍ مِن خلالِ هذا الموقفِ ، ولنضربْ على ذلك مثلاً .

لو أنّ صاحبَ سيارةٍ في أثناءِ قيادته لها تألّقَ ضوءٌ أحمر في لوحةِ البياناتِ التي أمامه ، فالمشكلةُ ليست في تصديقِ التألُّقِ ، أو عدمِ تصديقِه ، لقد رأى تألُّقَ هذا الضوء بأمِّ عَيْنِهِ ، ولكنّ المشكلةَ في فَهْمِ هذا

التألُّقِ ، وتحليلِه ، والسلوكِ الذي يُبنَى على هذا الفَهْم والتحليل ، فلو فَهِمَ التألُّقَ على أنّه ضوءٌ تزينيٌّ ، فتابَع السَّيْرَ ، لاحترقَ المحرِّكُ ، وتكلّفَ لإصلاحه مبلغاً كبيراً ، وتعطّل سيرهُ إلى هدفِه ، أمّا إذا فَهِم هذا التألّقَ على أنه ضوءٌ تحذيريٌّ ، أوقفَ السيَّارةَ ، وأضافَ الزيتَ ، وسلِم محرِّكُ السيارةِ من الاحتراقِ ، وتابَعَ سَيْرهُ إلى هدفه ، فالعبرةُ لا في التصديقِ وعدمِه ، بلْ في فَهْمِ الحدثِ وتحليلِه .

ما هذا العالَمُ ! ؟ إنه عالَمٌ أحمرُ من كثرةِ الدماءِ التي تُسفَك ظلماً ، ما هذا العالَمُ الذي ليس في قاموسِه إلا القتلُ ، والتدميرُ ، والقصفُ ، والمداهمةُ ، والقبضُ ، والاعتقالُ ، والتعذيبُ ، والاغتيالُ ، وأنهارٌ من الدماءِ تجري ؟ حتى إنك لتشكُّ في إنسانيةِ هذا العالَمِ ، علاوة على قيمِه وأخلاقِه ودياناتِه ، بل إنّ الإنسانَ وهو يشاهد هذه المشاهِدَ الظالمةَ يخجلُ أن ينتميّ إلى هذا الجنسِ البشريّ المتوحشِ .

هل هذه حياةٌ تعاشُ ؟ هل هذه حضارة تثمنُ ؟

هل هذه دولٌ متقدّمةٌ أم أنها أَبَتْ إلا أن تأخذَ نَصيبَها من التخلّفِ والهمجيّةِ ؟ وإلاّ فبماذا تفسَّرُ تلك الأعمالُ الإجراميةُ العالميةُ والإرهابُ الدوليُّ ضد أبرياءَ وعزلٍ وأصحابِ حقوقٍ سلِيبةٍ ، وكراماتٍ منتهكةٍ ؟

إنّ حياةَ الغابِ أرحمُ بكثيرٍ مما نشاهدُه في مسرحيةِ الحريّةِ والديمقراطيّةِ ، وحقوقِ الإنسانِ ، التي استمتعنا بالفصلِ الأولِ منها ، ونحن في غفلةٍ ساهون ، وبكينا في الفصولِ اللاحقةِ ؛ كفصلِ التطهيرِ العرقيِّ ، ومكافحةِ الإرهابِ بإرهابٍ يفوقُ حدَّ الوصفِ ، لكنّ المُخرِجَ

المخادعَ حاولَ أنْ ينسيَنا فصولَ الجريمةِ بقضايا براقةٍ ، من العولمةِ التي لا تعني سوى الحَيْوَنَةِ ، أي : أنْ نثيرَ في الإنسانِ الجانبَ الحيوانيَّ ، ليس غير .

لذلك نستطيعُ أن نقابلَ القنبلةَ الذريةَ بقنبلةِ الذُريّةِ ، أي بتربيةِ جيلٍ مسلمٍ ينهضُ بأمّتِه .

إنّ مواقفَ العدوِّ وسياساتِه تؤكِّدُ عقمَ التياراتِ التلفيقيةِ والاستسلاميةِ ، وتفتحُ الطريقَ واسعاً وبلا حدودٍ أمامَ تيار المقاومةِ ، ولاسيما الملتزمةِ منها ، وهكذا فقد انتهى طريقُ الوهم ، وبدأ طريقُ النصرِ ، إنْ شاءَ الله تعالى .

صحيحٌ أنّ هناك متغيِّراتٍ دوليةً ، ولكنّ الأصحَّ من ذلك أن هناك ثوابتَ إسلاميةً ، وأنّ الباطلَ الكثيفَ الذي يركبُ موجةَ هذه المتغيِّراتِ الدوليةِ لا يمكنُ أن يلغيَ الحقَّ الراسخَ الذي تملكه أمّتُنا ، فالمتغيِّراتُ الدوليةُ تستوجبُ قدراً من التكيّفِ والمناورةِ في الوسائلِ والجزئياتِ ، لكنْ لا يجوزُ بحالٍ من الأحوالِ أنّ نغيّرَ في الأهدافِ والمبادئ .

مثالُ ذلك : إذَا سافرَ المسلمُ ، والسفرُ تغييرٌ بالنسبةِ إلى المصلِّي ، هذا السفرُ يجيزُ للمصلِّي القصرَ والجمعَ في بعض الصلواتِ ، لكنّ السفرَ لا يجيزُ له تركَ الصلاةِ بحالٍ من الأحوال .

قال طفلٌ صغيرٌ بعفويةٍ ، وهو يزاحمُ بجسدِه النحيلِ ، ويحاولُ شقَّ طريقٍ له وسطَ الجموعِ الغفيرةِ التي أمّت مستشفى الشفاءِ في غزّةَ : « إنّ اغتيالَ هذا المجاهدِ الشهيدِ لن يحبطَنا ، ولن يكسرَ شوكتنا ، بل سيزيدنا

قوةً وعزيمةً على مواصلةِ دربِ الكفاحِ والمقاومةِ ، حتى تحريرِ أرضِنا » .

ولله درُّ مَن قال ، وقد صدق فيما قال :

لئن عرف التاريخ أوساً وخزرجاً فللّـه أوسٌ قـادمـون وخـــزرجُ

* * *

متى تغضب

نظراً للمحنِ والشدائدِ التي تمرُّ بها أمّتُنا ، والتي تُهدّ لهولِها الجبالُ ، فإني أخاطبُ أولئك الذين لم يحملوا همومَ أمّتِهم أينما كانوا في العالمين العربيّ والإسلاميّ ، ولم يتألّموا لآلامها ، ولم يحزنوا لأحزانِها ، وتوهّموا أنّ الذي يجري حوْلَهم لا يعنيهم ، وهم غارقون في حفلاتٍ تقامُ في ردهاتِ الفنادقِ ، وفي أبهاءِ المطاعمِ ، وفي حدائقِ المزارعِ ، وفي ألعابٍ تافهةٍ ، وسباقاتٍ فارغةٍ ، وفي برامجَ ساقطةٍ مستوردةٍ مِن عالَمٍ تتناقضُ قيمُه ومبادئُه مع قيمِنا ومبادئنا ، تبثُّها بعضُ الفضائياتِ ، والتي تُبذَلُ فيها الأموالُ الطائلةُ ، والأوقاتُ الثمينةُ ، إلى هؤلاء الشاردين أقول :

أخي في اللهِ ، أخبرني متى تغضبْ ؟

إذا انتُهكت محارمُنا

إذا نُسفت معالمُنا ولم تغضب

إذا قُتلت شهامتُنا ؟ إذا دِيسَتْ كرامتُنا

إذا قامت قيامتُنا ، ولم تغضبْ

فأخبرني متى تغضبْ ؟

إذا نُهِبتْ مواردُنا ، إذا نُكبتْ معاهدُنا .

إذا هُدّمت مساجدُنا ، وظلّ المسجدُ الأقصى .

وظلّت قدسُنا تُغصبْ .

ولم تغضبْ .

فأخبرني متى تغضبْ ؟

عدوّي أو عدوُّك يهتكُ الأعراضَ .

يعبثُ في دمي لعباً

وأنت تراقبُ الملعبْ

إذا لله للإسلام لم تغضبْ فأخبرني متى تغضبْ ؟!

رأيتَ هناك أهوالا

رأيتَ الدم شلالاً

عجائز شيَّعت للموت أطفالاً

رأيتَ القهر ألواناً وأشكالاً

ولم تغضبْ

فأخبرني متى تغضبْ ؟

صارحني بلا خجلٍ ، لأيّ أمة تُنسبْ ؟!

فلست لنا ، ولا منا ، ولست لعالم الإنسان منسوبا

ألم يحزنك ما تلقاه أمّتُنا من الهولِ ؟

ألم يخجلك ما تجنيه من مستنقعِ الحلِّ

وما تلقاه في دوامةِ الإرهابِ والقتلِ ؟

ألم يغضبك هذا الواقعُ المعجونُ بالذلِّ ؟

وتغضبُ عند نقصِ الملحِ في الأكلِ!

ألم يهززك منظرُ طفلةٍ ملأتْ

مواضعَ جسمِها الحفرُ

ولا أبكاك ذاك الطفلُ في هلعٍ

بظهرِ أبيه يستترُ

فما رحموا استغاثته

ولا اكترثوا ولا شعروا

فخرّ لوجهه ميْتاً

وخرّ أبوه يحتضرُ

متى التوحيد في جنبَيْك ينتصرُ ؟

أتبقى دائماً من أجل لقمة عيشكَ

المغموسِ بالإذلال تعتذرُ ؟

متى من هذه الأحداث تعتبرُ ؟

* * *